الكلية: كلية الآداب

القسم أو الفرع: قسم التاريخ

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة: أ.م.د. بشير صباح عواد

اسم المادة: الدويلات الاسلامية في المغرب .

اسم المادة باللغة الانكليزية: Islamic states in Morocco

اسم المحاضرة باللغة العربية: الامارة الإباضية الرستمية .

اسم المحاضرة باللغة الانكليزية:The Ibadi Rustamid Emirate

١ـ الامارة الإباضية الرستمية :

عرفت بالإمارة الإباضية نسبةً الى عبد الله بن إباض المري التميمي ، وكانوا قبل انتسابهم الى ابن إباض هذا يصفون أنفسهم باسم "الجماعة المؤمنة المسلمة" أو "جماعة المسلمين" كذلك يسمون باسم "الشراة" استناداً الى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١١١) لقد اثرت دعوة الإباضية تأثيراً كبيراً في قبائل المغرب وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية ، فقد كانت الظروف مهيأة لتقبل فكر وآراء الإباضية .

وأول من دعا الى الفكر الإباضي في أفريقية سلمة بن سعد بن علي بن أسد الحضرمي في أوائل المائة الثانية من الهجرة .

وكان سلمة هذا شديد التمسك بالمذهب الإباضي ، فيؤثر عنه قوله: "وددت أن يظهر هذا الأمر بالمغرب يوماً واحداً من غدوة الى الليل فما ابالي أن يضرب عنقي" .

لقد حاول عبد الله بن إباض مواجهة الأمويين انطلاقاً من سلوكه المعتدل مواجهة سلمية ، فكان يخطط لإقناعهم بالحسنى بصحة مبادئه العامة .

ومن أولى الخطوات التي تبناها الإباضية في المغرب ، هي إرسال عدد من المبعوثين الى البصرة كي يدرسوا المبادئ الخارجية الإباضية لفترة أربع سنوات ، وكانوا أربعة هم: عاصم السدراتي ، وعبد الرحمن بن رستم ، وأبو داود القبلي النفزاوي وإسماعيل بن ضرار الغدامي ، وعندما وصل هؤلاء الى البصرة انضم إليهم شخص خامس هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني .

عاد هؤلاء الى المغرب وكلهم أمل في أن يحققوا أشياء مهمة في ميدان الدعوة الإباضية . وحين وصولهم الى طرابلس في سنة(١٤٠هـ/٧٥٨م) اجتمعوا بموضع قريب من طرابلس ، وقرروا أن يكون أبو الخطاب المسؤول الأول عن الدعوة الإباضية .

ولم تمض مدة وجيزة حتى تمكن الإباضيون من السيطرة المحكمة على كل ليبيا الحالية ، وهذا ما مكنهم من التوجه غرباً والسيطرة على القيروان . ووصلت بعض قواتهم الى جبال القبائل بالجزائر اليوم .

نجحت الدعوة الإباضية بتأسيس إمارة خارجية بالمغرب الأوسط(الجزائر) عرفت بالإمارة الرستمية الإباضية نسبة الى والد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم . وقيل أن عبد الرحمن هذا من أصل فارسي ، ذلك لأن عبد الرحمن بن رستم كان برفقة والده الذي قضى نحبه بمكة المكرمة اثناء تأدية فريضة الحج ، فتزوجت والدته برجل مغربي ، انتقل عبد الرحمن معها الى المغرب الأدنى ، وقد عرف عنه أنه شاب متقدم الذكاء متميز على اقرانه من حيث الاستعداد للتعلم ومن حيث سلوكه الأخلاقي وتميز بالكياسة والاتزان ، وهي صفات لفتت انتباه شيخ الدعوة الإباضية ابي الخطاب عبد الأعلى سابق الذكر .

وحينما عاد عبد الرحمن من البصرة عينه أبو الخطاب ممثلاً عنه في المغربين الأدنى والأوسط لكن إقامته بالقيروان لم تكن طويلة ، فقد اضطر لمغادرتها في سنة(١٤٤هـ/٧٦٢م) بعد سماعه مقتل سيده أبي الخطاب على يد العباسيين ، فذهب الى طنجة ثم الى تهوده ثم لينتقل الى تاهرت التي ستصبح عاصمة للإمارة الرستمية الإباضية .

تمكن عبد الرحمن بن رستم ومن موقعه الجديد ، أن يستقطب كثيرين من الأنصار والمؤيدين الذين تتوافر فيهم الصفات المطلوبة لتأسيس إمارة خارجية على المذهب الإباضي ، ويبدو أن هؤلاء الأتباع كانوا من الكثرة والقوة الى درجة شجعت عبد الرحمن بن رستم على الشروع ببناء مدينة خاصة بهم ، وتكون عاصمة للإمارة التي ينادون لها ، وكان ذلك سنة (١٦٠هـ /٧٧٧م).

بنيت المدينة الجديدة التي عرفت باسم(تاهرت) في موقع منيع ومحصن الى حد كبير هو سفح جبل جزول ، وهذا الموقع عبارة عن غيضة أشبه ، والاسم يذكر لمواضع مدن متعددة بالقرب من الموضع الذي بنى فيه عبد الرحمن بن رستم عاصمة الخوارج الإباضية .

مع مرور الأيام تعدت حدود هذه الإمارة الى أماكن نائية عن الموضع الجديد فوصلت في الجنوب الى قريب من نهر النيجر ، ووصلت في الغرب الى سجلماسة بجنوب المملكة المغربية الحالية ، ووصلت في الشرق حتى جبل نفوسة(الجبل الغربي) بليبيا ، ووصلت في الشمال الى تنس ومستغانم ووهران بالجزائر اليوم .

ونطرح السؤال: هل نجح الخوارج الإباضية من تطبيق المبادئ التي نادوا بها العدل والمساواة؟

على الرغم من أن الإباضية تظاهروا بحرصهم على تطبيق مبدأ الشورى والانتخاب ، هذا المبدأ الذي تمثل آنذاك بسبعة من زعمائهم . وقد انعكس ذلك سلباً على مسيرة الإمارة واستقرارها ،ثم ظهور مجموعة من الإباضيين أعلنت رفضها المطلق لحكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، وعرفوا هؤلاء في التاريخ الإباضي بالنكارية ، وقد شكلوا هؤلاء خطراً للإمارة وحاولوا الانفصال .

المنجزات الحضارية للإمارة الإباضية:

تمكن حكام (تاهرت) من تحقيق منجزات حضارية على الرغم من الاختلاف الفكري بينهم وبين آراء جمهور فقهاء العالم الإسلامي عند ذاك ، وما واجهه الخوارج بعامة من مقاومة كبيرة لاسيما في الشام والعراق ، نجدهم وكما اسلفنا من قبل ، قد وجهوا دعاتهم الى المغرب ، وبالفعل قد وجدوا ضالتهم ، وتمكنوا من نشر ثقافتهم ، وكان لها أثر واضح في صفوف المجتمع المغربي ، وإن كانوا لم يعمروا طويلاً ، إلا إننا يمكن أن نجمل إنجازاتهم بالآتي:-

١- اهتمامهم بالجانب الزراعي ، إذ خصوبة الأرض التي سيطروا عليها وصلاحيتها للنشاط الزراعي ، لاسيما وادي شلف ، الذي ساعد على قيام زراعة مهمة مثل الحبوب والكتان وغير ذلك .

٢- اهتمامهم بالجانب التجاري ، إذ نشطت التجارة حيث نجاح الزراعة من جهة وموقع تاهرت التجاري من جهة أخرى ساعدت على ازدهار النشاط التجاري مع الأندلس ، التي كانت سفنهم في حركة مستمرة بين موانئ الإمارة الإباضية والموانئ الأندلسية على البحر المتوسط ، زيادة على حركة القوافل التجارية بين تاهرت وبين دول أفريقية الغربية وسجلماسة ، وكانت تجارتهم تصل الى بلاد الفرنجة ، كالذهب والجلود وريش النعام ، والحرير ، والصوف ، والخزف ، والعطور ، وبعض المصنوعات المعدنية ، الأمر الذي انعكس على اقتصاد الإمارة الإباضية ، إذ نعم سكانها بالرفاهية والازدهار المعاشي .

٣- على الرغم من التقاطع العقائدي بين الخوارج بعامة ، والمذاهب الإسلامية الأخرى ، والحركات الإسلامية بخاصة إلا إننا نجد نوعاً من التسامح من جانب الإباضية ، ويتضح ذلك من أن المجتمع في تاهرت فيه المعتزلة وفيه من المسيحيين وغير ذلك . وقد ساد بين هؤلاء وبين الإباضية مناقشات وحوارات غلب عليها احترام المقابل ، ويبدو ذلك للإعطاء الوجه الحضاري للإمارة الإباضية بخاصة وهم طبقة واجهوا المشكلات أول ظهورهم وكما اسلفنا من قبل .

٤- اهتمام حكام الإمارة الإباضية بمختلف العلوم وتشجيعهم للعلماء وبعثهم لحياة علمية متطورة، ولا أدل على ذلك من أن مؤسس الإمارة عبد الرحمن بن رستم كان من العلماء البارزين في عصره ، والدليل على ذلك أنه وضع تفسيراً للقرآن الكريم بنفسه ، ثم تأليفه عدد من الكتب . كما نحى خلفه ابنه عبد الوهاب ذلك المنحى

العلمي إذ ألف كتاباً في فقه الإباضية هو (مسائل جبل نفوسة) وهو عبارة عن أجوبة لأسئلة كانت ترد عليه من جبل نفوسة بجنوب غرب طرابلس الغرب .

كذلك اقدامهم على شراء الكتب الثمينة ليضمنوها في مكتبة تاهرت الشهيرة التي كانت من أهم المظاهر العلمية والحضارية في الإمارة الإباضية . حتى قيل أنها احتوت على(٣٠٠) ألف مجلد في مختلف فنون المعرفة ، والمؤسف له أن تلك المكتبة قد دمرت بما تحتويه من مؤلفات على يد العبيديين .

٥- ومن أهم إنجازاتهم الحضارية هو تخليد شاخص مهم لإمارتهم ، ألا وهو العمران والبناء والتشييد ، فقد بنوا القصور الجميلة والمنشآت المختلفة في تاهرت وما يحيط بها من مدن ، حتى تمكنوا من ايصال مياه الشرب بقنوات الى تلك المنشآت .

٦- وكان للعلاقات السياسية جانب مهم في الإمارة الإباضية ، إذ تمتع حكامها بالكياسة والدبلوماسية ، فكانت لهم علاقات حسنة مع الدولة الأموية بالأندلس .

كما كانت لها علاقات دبلوماسية مع المصريين ، بالرغم من أنها كانت ولاية تابعة للدولة العباسية ، حتى ترسخت العلاقات التجارية بين الإمارة الإباضية وولاية الفسطاط .

٢- إمارة بني مدرار الخارجية بسجلماسة:

تأسست هذه الإمارة في وقت مبكر من القرن الثانـــــي الهجري/الثامن الميلادي ، تأسست في واحة سجلماسة في أعالي وادي زير على أطراف الصحراء في المغرب الأقصى ، إذ كان الموقع على جانب كبير من الأهمية التجارية ، ذلك لأنها كانت محطة لمرور القوافل التجارية باتجاه غرب أفريقية وبالعكس .

وهي ثاني إمارة للخوارج في المغرب العربي الكبير . لقد أُعلِن عن تأسيس هذه الإمارة رسمياً في سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ، وأعلنت الإمارة مبادئ عملها أو الأساس التي قامت عليه ، وهي تطبيق العدل والمساواة وعدم التفريق بين الناس ، سواء أكانوا بيضاً أم سوداً أحباشاً ، وفعلاً في أول حكمهم عينوا رجلاً اسوداً يدعى عيسى بن يزيد الأسود المكناسي ، ووضعوا مبدأ لخلعه في حال اعراضه عن مبادئهم التي أقروها . وبعد حكم دام ربع قرن تقريباً خلعوا عيسى بن يزيد من قيادته للإمارة وحدث ذلك سنة ١٦٧هـ/٧٨٤م ، وعملوا عملاً يدعو للاشمئزاز والاستنكار ، تمثل بقتلهم إمامهم الأول عيسى بصورة وحشية ، ثم عينوا لقيادة الإمارة أحد المكناسيين ، وهم بذلك خالفوا القواعد والمبادئ التي كانت تنادي بها الإمارة الخارجية والتي كانت تقوم على اساس الشورى والانتخاب ، إلا أن ذلك لم يحصل إذ أصبحت ولاية يرث الابن الأب وهكذا .

هذا وقد توالى على حكم الإمارة المدرارية عدد من الأمراء ، أولهم أبو القاسم سعدون بن واسول المكناسي ، الملقب بالمدرار ، وقيل أنه كان حداداً وأصله من الأندلس من حي الربض ، والربضيون هم اصحاب ثورة الربض في قرطبة إذ لجؤوا الى المغرب في عهد الأمير الحكَم الربضي الذي لُقبَ بالربضي لأنه

حدثت حادثة الربض خلال إمارته ، وكانت فترة حكم أبو القاسم هذا قصيرة ، إذ خلفه أبنه الياس المعروف بلقب الوزير ، واستمر في حكم سجلماسة حتى سنة (٢٧٤هـ/٧٩١م)، إذ ثار عليه جماعته واتباعه واقصوه عن الحكم ، وأقاموا بدلاً منه أخاه اليسع ، الذي توطدت في عصره أسس الإمارة المدرارية وتحسنت أحوالها ، فهو يُعد المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ، ففي عصره اتسعت رقعتها حينما استطاع أن يضم إليها منطقة درعة ، التي كانت من مناطق جنوب المغرب الأقصى المهمة لموقعها على طريق القوافل التجارية وخصوبة أراضيها وصلاحيتها للزراعة.

أهم مميزات الإمارة المدرارية :

١ـ ازدهرت فيها الزراعة آنذاك لتوفر الأراضي الخصبة القريبة من نهر زير الدائم الجريان ، ومن أهم منتجاتها الزراعية كانت ، الحبوب ، والتمور ، والكرم ، والكراوية ، والحناء والكمون. وكذلك من منتجاتها النيلة وشجر الناكوت والقطن الذي أُدخِل إليها واصبح من أهم منتجاتها ، إذ دخل في صناعة المنسوجات ، كذلك صناعة دباغة الجلود .

٢ـ ازدهار تجارتها ورواجها ، إذ بسبب موقعها الستراتيجي على طريق القوافل التجارية ، اصبحت بوابة غرب القارة الأفريقية ، إذ كانت من أهم مصادر الذهب في العصور الوسطى ، مما جعلها محطة مهمة لكل القوافل التجارية التي تتزود منها بكل احتياجاتها .

٣ـ اسهمت سجلماسة بنقل الفنون المعمارية خاصةً من المشرق العربي ، بفعل الأقبال عليها ، ونتيجةً للاتصال التجاري بين المشرق والمغرب .

٤ـ ما شهدته سجلماسة من تسامح في التعايش مع غير المسلمين كاليهود الذين وفدوا إليها وعملوا في المجال التجاري والصناعي ، حتى تشكل في سجلماسة جالية لهؤلاء اليهود .

المصادر والمراجع:

١- ابن أبي زرع، أبو الحسن عبد الله الفاسي(ت ٧٢٠هـ)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، (الرباط،١٩٧٣) .

٢- أحمد: علي ،تاريخ المغرب القديم والإسلامي، مطبعة الداووي، (دمشق،٢٠٠٧م).

٣- محمد سعيد رضا، تاريخ المغرب والأندلس